

العرائس

ديوان الشاعر البحريني إبراهيم العريض

والاستاذ صاحب العرائس ، كما ينم عليه شعره ، إنسان رقيق العاطفة لطيف الشعور ، ناعم الإحساس ، والمرأة عنده مدار كل جمال في الوجود والفن :

هذا الوجود إطار لا كفاء له وغاية الفن فيه رسم حواء
وما يضطرب في الحياة من معان جميلة ، وأهداف جليلة ، فلها .
لها الشاب الذي تشق برقيته ما كابد القلب من صدوإغراء
لها الجال الذي تعنو لعزته فيما تشاهد من ظل ومن ماء
لها الوداد الذي تبقى أشعته تنير خطوك في طوفان أهواء
لا تكذب النفس في مجد حلت به

فلست تحسن إلا قول أهواها
ولماذا ؟ لأن المأساة والمهزلة في حياتنا الدنيا قضية واحدة
كما يقول في مقدمة بعض قصصه :

هي أسطورة حواء جرت في أثر حيه
والحياة بغير حواء ظالة لا تطاق :
هل تكون الحياة لولاك إلا ظلة لا أطيق منها خروجا
وفي فرايس الجنان لأمل للشاعر إلا الفوز بالمرأة
على انفراد :

وما تؤمل بالفردوس منفرداً إلا رجاؤك أن تحظى بلقياها
حتى الطبيعة لو تمثلت بشراً سوياً لكانت امرأة نواحة :
إن الطبيعة لو تمثلت شخصها لبدت فتاة في ثياب حداد
تبكي على وجه يحول وزهرة تذوى وحسن مشرف لنفاد
وهكذا نجد المرأة هي كل شيء عند هذا الشاعر الطريف ،
فلا غرو أن يهدي عرائسه إلى حواء ، مادامت لها تلك
المنزلة وما دامت هي المهمة :

أفهل تذكرين حواء لما قلت لي والهوى يرف علينا
أى حسن رأيت في حتى حال نوراً يشع من ناظرينا
حبذا لو جلوت لي في إطار أثر الحب في نفوس كلينا
نغذيها مني أحاسيس شتى نبضت بالحياة لونا فلونا
وغزل الشاعر - في الأغلب الأعم - شريف عفيف
يتسم بطراوة المعاني وطلاوة الألفاظ ، ويعرب عن روح
شاعرة أصدق لإعراب ، وحسبك أن تقرأ له هذه الآيات
فقد اشتملت على أكثر خصائصه :

مأكثر الشعر الذي يصدر عن جزيرة العرب في هذا العصر ، وما أقل قيمته ! . في كل حين نسمع بشاعر جديد فيطير بنا الخيال إلى العصر الجاهلي وصدر الإسلام ، حيث كانت الجزيرة مورد الشعر ومصدر الأدب ، وتمثل لنا الكنوز الشعرية التي أهدتها جزيرتنا إلى العالم ، ويحملنا الظن على أن هذا الشاعر الجديد قد ورث عن أجداده الفحول ملكة الشعر تامة ، ومن هو أولى بهذه الوراثة منه ؟ . ثم نقرأ قصائده قستك أسماعنا بغزل كاذب يشهد على صاحبه بالجهل في فنون الغزل ، وحماس بارد يهيم قارؤه حين سماعه ، إلى وعظ وإرشاد لبني قومه الأبحاد أشبه ما يكون بالخطب المنبرية ، بل هو خطب منبرية موزونة مقفاة ! .

وبجانب هذا الشعر تقوم طائفة من الناس تدعى لنفسها العلم بالشعر والمعرفة بأساليبه ، وليس لها من العلم والمعرفة غير الاسم ، فتخلع الألقاب على الشعراء بلا حساب .. فهذا شاعر الجزيرة بلا مدافع ، وذلك الشاعر الوطني بلا منازع ، وهذا شاعر الحب والجمال حيث لا حب ولا جمال ، وتحسب أنها رسمت الحدود وفصلت المناهج بهذه الأقوال الفارغة ، وأنها يسرت السيل للقارىء . فما عليه إلا أن يأخذ بما تقول في شأن هذا الشاعر أو ذاك ثم يقرأ شعره فان لم يجد ما نقوله صحيحاً ، وهو مالا يجده دائماً ، فليتهم نفسه ! .

ويبدو لك جهل هؤلاء النقاد - كما يصفون أنفسهم - حين يعتمد أحدهم إلى التخصيص دون التعميم ، أو يحاول أن يشير إلى قاعدة بلاغية وقلما يشير إليها دون بر أو قلب - وإذا بها حجة عليه لاله فيما يدعيه ، وإذا بكلامه ضرب من الهذيان بل هو شرابلية الذي يضحك ...

فإذا نبغ في هذا الجو الأدبي - الموبوء - شاعر كأمثال إبراهيم العريض فلا جرم إذا استقبلناه بكل تقدير وتكريم ملاك الشعر الصحيح ، صدق العاطفة ، وجمال التعبير ، ودقة الأداء ، وبغير هذه المقومات لا يستقيم الشعر .. وقد اجتمعت كلها - أو جلها - في شعر الأستاذ العريض ، وبخاصة في غنائياته التي سنتحدث عنها الآن ..

تعالى ، فإن الليل يبسط ظله لكي يتملى ناشئ الزهر حله
وإن فؤادي برعم في يد الصبا سأعدم نشر أمتك إن لم أطله
وتمت سر كامن فيه كالشذا ولم أنتشق منه إلا أقله
طوى باكيا.. كالزهر أول صفحة

من العمر .. حتى يضحك العمر كله
وشاعرنا مغرم بإرضاء معشوقته والتجيب إليها فتارة نراه
يفنى شخصيته في سبيلها كما في قوله :
فلا يزدهي قلبي بشيء مؤمل إذالم يصادف في فؤادك شاننا
وتارة يعرض عليها صورا منتزعة من جمال الطبيعة تحكي
حبه لها :

إن حي إليك كالبحر لما ترشق الشمس وجهه فيموجا
لا . بل الشمس عند ما تتجلى
من وراء السحاب تطل المروجا
لا . بل الغيث عند ما يتوشى
منبت الأرض من نداه نسيجا
لا . بل الروض عند ما يتلقى
قطرات الندى فيزكو أريجها
صور يأميم شتى ولكن ألفت من هواك معنى بهيجا
وأحيانا يعتمد إلى تصوير حالته النفسية لها ، وربما
عطفت ورقته :
يامي قد أصبحت من طول ما أعياني الشعر ، غليل الفؤاد
لأملك اليوم سوى دمعة أفصح عن حي بها في انفراد
أهذه حالة أهل الهوى قاطبه . أم أنا دون العباد ؟
ونحن نطمئن الشاعر بأن أهل الهوى - والله أعلم -
يشاركونه هذه الأحاسيس ...

وبعد : فنعتقد أن ما ذكرناه من شعره كاف للدلالة
على شاعريته ومذهبه المختار .. وللشاعر براعة فائقة على
التشخيص والتصوير ، وأوضح ما تكون هذه الخاصية في
قصيدته الطريفة «عروس البحر» إذ صادف هذه العروس ،
وكان كما يقول :

أنا في نشوة أحدث نفسي بما أراه
وأرى ملء ناظري حياة هي الحياة
تحت ظل يكاد يشتعل الزهر في مداه
وسكون يمدد بلبل بالذي شداه
وإذا في أحسن خلفي حراكا على المياه

ثم يصف الشاعر هذه العروس التي فاجأته على الشاطئ.
ويصور ماشاء وشاء له خياله الخصب ، وهذه القصيدة
من أجل ما قيل في معناها ...

وأخيراً ... فللاستاذ فضيلة تذكر في محافظته على
أساليب اللغة وقواعدها ، وعلى سموه بأغراض الشعر
ومقاصده ، فلم نقع له إلا على هفوات قليلة نادرة ،
- وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه -
ومن تلك الهفوات قوله :

شغفت بالحسن لا تنفك تطلبه
عينك حتى ولو في كأس صبياء
وحق العاطفة تأتي غاية للنقص أو الزيادة وقد اجتمعا في
قول الشاعر :

قهرناكم حتى الحكمة فأنتم
تهابونا حتى بنينا الأصاغرا
وليس كأس الصبياء « أسمع » شيء يظهر فيه الحسن
حتى يستدل به على قدرته في استشفاف الجمال فيه ، على أن
التعبير بحتى ولو فيه كلام قد يطول .. ومثل قوله .

هم حسبوني شاعراً ، أين لي
ملك أنفاس تهز الجباد
فلو جاء بأنغام مكان أنفاس لكان أولى ، إذ الأنفاس
التي تهز الجباد هي أنفاس البراكين ..
ونحو قوله .

لقد كان أولى أن تتمتع بعضنا
بأنظار بعض في جنون صبابنا
ونسعد بعضاً في اشتراك سرورنا
ونسعد بعضاً في اشتراك أسانا

وما بالنيا نشق كذا بودادنا ...
وقوله : وكانت هي الأخرى كثير وجومها ...
وهذا الصنف من التراكيب العامة ، والمعاني المتبدلة
لا يستساغ من شاعر كالأستاذ العريض يعرف قدر الشعر
ويرى أنه :

لو تجلت قدرة الخلاق في لفظة صاغ لها الشاعر معنى
ولكن ... جل من لا يسبو ...
حيا الله الأستاذ ، وأكثر من أمثاله بين شعرائنا

أحمد العدواني